25 جمادي الآخرة 1443هـ 28يناير 2022م

حقُّ الوطنِ والتضحيةُ في سبيلِهِ

عناصرُ الخطبةِ:

(1) حبُّ الأوطانِ مِن صميمِ مقاصدِ الأديانِ.

(2) جانبٌ مِن حقِّ الوطنِ علينَا جميعًا.

الحمدُ للهِ حمدًا يُوافِي نعمَهُ، ويُكافِئُ مزيدَهُ، لكَ الحمدُ كما ينبغِي لجلالِ وجهِكَ، ولعظيمِ سلطانِكَ، والصلاةُ والسلامُ الأتمانِ الأكملانِ على سيدِنَا محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمَّا بعدُ ،،،

(1) **حبُّ الأوطانِ من صميمِ مقاصدِ الأديانِ**: لقد فطرَ اللهُ الخلقَ على محبةِ الأوطانِ، والحنينِ إلى ترابِهِ، والدفاعِ عن أركانِهِ، والحفاظِ على مقدراتِهِ، ينبضُ بهِ قلبُهُ، ويجري بهِ دمُهُ، فهو مِن أجلِّ النعمِ التي يُنعمُ بهِ الخالقُ جلَّ وعلَا على الإنسانِ بعدَ الإيمانِ باللهِ ورُسُلِهِ، ولذا تجدُ السياقَ القرآنِيَّ قد سوَّى بينَ مصيبةِ الموتِ وبينَ الإخراجِ مِن الأوطانِ فقالَ عزَّ من قائلٍ: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ**﴾، وقد ضربَ رسولُنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أروعَ الأمثلةِ في محبتِهِ لوطنِهِ، وتجدُ هذا جليًّا في حادثِ تحويلِ القبلةِ، وكثرةِ تقليبِ وجهِهِ في السماءِ رجاءً أنْ تُحولَ القبلةُ تجاهَ البيتِ الحرامِ مسقطَ رأسِهِ، وقد تكاثرتْ الأحاديثُ عنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيانِ محبتِهِ لوطنِهِ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ حَمْرَاءَ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَاقِفًا عَلَى الحَزْوَرَةِ فَقَالَ: «**وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**» . (الترمذيُّ وحسنَهُ، والحاكمُ وصححَهُ ووافقهُ الذهبيُّ) .

ولما انتقلَ المسلمونَ من مكةَ إلى المدينةِ وبطبيعةِ الحالِ عندمَا يستقرُّ الإنسانُ في مكانٍ جديدٍ لا يتأقلمُ عليه نفسيًّا وجسديًّا - في بدايةِ الحالِ - فشكُوا حالَهُم للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدعَا لهُم أنْ يغرسَ اللهُ حبَّهَا فيهِم فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهِيَ وَبِيئَةٌ، فَاشْتَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَاشْتَكَى بِلَالٌ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ شَكْوَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا» . (متفقٌ عليه)، فمحبةُ الأوطانِ غريزةٌ جبليةٌ يشتركُ فيها الإنسانُ والحيوانُ يقولُ الأصمعيُّ: «ثلاثُ خصالٍ في ثلاثةِ أصنافٍ

من الحيواناتِ: الإبلُ تحنُّ إلى أوطانِهَا وإنْ كان عهدُهَا بها بعيدًا، والطيرُ إلى وكرِهِ وإنْ كان موضعُهُ مجدبًا، والإنسانُ إلى وطنهِ وإنْ كان غيرُهُ أكثرَ نفعًا»، ولذا تجدُ الحيوانَ أو الطيرَ يقطعُ آلالافَ الكيلُو متراتٍ، ويهاجرُ متنقلًا من مكانٍ إلى آخرٍ بحثًا عن الغذاءِ أو مِن أجلِ التكاثرِ والتزاوجِ ثم يحنُّ إلى وطنِهِ الأُم، بل قد يُضحِّي بكلِّ غالٍ ونفيسٍ في سبيلِ تحقيقِ ذلك حتّى إنّ بعضَ المخلوقاتِ إذا تمَّ نقلُهَا عن موطنِهَا الأصليِّ فإنَّها تموتُ، وتذهبُ سُدى، فسبحانَ مَن دقتْ حكمتُهُ وقدرتُهُ كلَّ شيءٍ.

إنّ المسلمَ عندما يحبُّ وطنَهُ إنَّما يتمثلُ في الأساسِ هديَ المصطفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هديَ الأنبياءِ جميعًا، فمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما مكثَ في مدينَ فترةً من الزمنِ حنَّ للرجوعِ إلى بلدِهِ الأُم مِصرَ - وعلى جبلِ الطورِ في سيناءَ كلَّمَ ربَّهُ - رغمَ ما سيُلاقيهِ من متاعبَ ومشاقٍ، واستمعْ إلى القرآنِ وهو يحكِي ذلك الموقفَ: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، قال ابنُ العربيِّ المالكيِّ: **(قَالَ عُلَمَاؤُنَا: لَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ طَلَبَ الرُّجُوعَ إلَى أَهْلِهِ، وَحَنَّ إلَى وَطَنِهِ، وَفِي الرُّجُوعِ إلَى الْأَوْطَانِ تُقْتَحَمُ الْأَغْرَارُ، وَتُرْكَبُ الْأَخْطَارُ، وَتُعَلَّلُ الْخَوَاطِرُ، وَيَقُولُ: لَمَّا طَالَتْ الْمُدَّةُ لَعَلَّهُ قَدْ نُسِيَتْ التُّهْمَةُ، وَبَلِيَتْ الْقِصَّةُ)** أ.ه أحكام القرآن 511/3.

ولمَّا أمرَ المسلمونَ الأوائلَ بالهجرةِ إلى الحبشةِ، قالَ لهُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ**»، ومكثُوا هنالك فترةً، ثم سمعُوا أنَّ الأوضاعَ قد هدأتْ رجعُوا، فلما دخلُوا سجدُوا للهِ شكرًا على رجوعِهِم إلى وطنِهِم، وأخذوا حفنةً من ترابِهَا وقبلُوهَا، وكان بلالٌ رضي اللهُ عنه لشدةِ حزنِهِ على تركِهِ لوطنِهِ - رغمَ ما حدثَ معهُ مِن تعذيبٍ وإيذاءٍ فيهِ- يقولُ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ شيبةَ بنَ ربيعةَ وعتبةَ بنَ ربيعةَ وأميةَ بنَ خلفٍ كما أخرجُونَا مِن أرضِنَا إلى أرضِ الوباءِ» . (البخاري) .

وبناءً على ما سبقَ جعلَ العلماءُ حبَّ الوطنِ أحدَ «الكلياتِ الستِّ» التي أوجبتْ جميعُ الرسالاتِ السماويةِ الحفاظَ عليه، أمّا مَن يقولُ خلافَ ذلك فلا تسعفهُ الأدلةُ ولا الفطرةُ النقيةُ ولا العقولُ الأبيةُ ولا النفوسُ العليةُ، وهذه المحبةُ تستلزمُ مِن الجميعِ التكاتفَ والاصطفافَ معًا لمواجهةِ الأعداءِ داخليًّا وخارجيًّا، المداومةَ على العملِ والإنتاجِ، وخدمةَ الوطنِ كلٌّ في مجالِهِ ومِحرابِهِ، وللهِ درُّ القائلِ:

بلادِي وإنْ هانتْ عليَّ عزيزةٌ ... ولو أنَّنِي أعرَى بها وأجوعُ

ولي كفُّ ضرغامٍ أصولُ ببطشِهَا ... وأشرِي بها بينَ الورَى وأبيعُ
تظُلُّ ملوكُ الأرضِ تلثمُ ظهرَها ... وفي بطنِهَا للمجدبينَ ربيعُ
أأجعلُهَا تحتَ الثرىَ ثم أبتغِي ... خلاصًا لها ؟ إنّي إذًا لوضيعُ
وما أنَا إلّا المسكُ في كلِّ بلدةٍ ... أضوعُ وأمَّا عندكُم فأضيعُ

(2) جانبٌ من حقِّ الوطنِ علينَا جميعًا: إنّ مِن شيمِ المؤمنِ الصادقِ الوفاءُ لوطنِهِ، وهذا الوفاءُ يجبُ أنْ يُترجمَ عمليًّا إلى أفعالٍ وسلوكياتٍ، وإلّا فهو محضُ افتراءٍ وادعاءٍ، وإليكَ بعضُ ما يجبُ علينَا تجاهَ وطنِنَا الغالِي:

*العملُ الجادُّ المثمرُ والتضحيةُ من أجلِ الوطنِ: فرضَ الإسلامُ علينَا العملَ، وحثَّنَا عليه، ورغبَنَا فيه لنصلَ مِن خلالِهِ إلى أعلى درجاتِ الجودةِ، وأرقَى متطلباتِ الإنتاجِ، وأفضلِ حالاتِ الشفافيةِ، وأوجبَ علينَا استثمارَ ثرواتِ الوطنِ من أجلِ تحقيقِ نهضتِهِ وازدهارِهِ، ولن يتحققَ ذلكَ إلا برجالٍ مخلصين قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، إنَّ أغلَى وأنفسَ ما يقدمُهُ الإنسانُ لوطنِهِ هو أنْ يواصلَ عملَهُ بالليلِ والنهارِ، وأنْ نتحملَ المسؤليةَ كلٌّ في مجالِ عملِهِ وتخصصِهِ من أجلِ أنْ نرتقِي ببلدِنَا؛ لتكونَ أفضلَ البلادِ، فالتعبيرُ عن الانتماءِ للوطنِ لا يكونُ بالشعاراتِ الرنانةِ، ولا العباراتِ الفضفاضةِ الجوفاءِ، ولكنْ بالعملِ والبناءِ والدفاعِ عنهُ، وبذلِ الغالِي والنفيسِ حتَّى تظلَّ رايتُهُ عاليةً خفاقةً، وقد بشرَّ نبيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن يحرسُ وطنَهُ، ويجودُ بنفسِهِ فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (سننُ الترمذي) .

***تقديمُ مصلحةِ الوطنِ العامةِ على المصلحةِ الخاصةِ**: يجبُ علينَا أنْ نشاركَ جميعًا في المحافظةِ على أمنِ الوطنِ وسلامتِهِ، ووحدةِ أرضِهِ واستقرارِهِ، والتصدِّي بكلِّ حزمٍ لحملاتِ التخريبِ والإفسادِ، وقد وضعَ اللهُ حدَّ الحرابةِ لمَن يباشرُ إفسادَ مقدراتِ الأرضِ، ويسعى لإحداثِ الفتنةِ، فقالَ تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا**﴾، وكذا مَن يهددُ استقرارَهُ بإطلاقِ الشائعاتِ المغرضةِ التي تؤثرُ سلبًا على الفردِ والمجتمعِ قال تعالى متوعدًا مَن يقدمُ على فعلِ ذلك: ﴿**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾، وفي سبيلِ المحافظةِ على أمنِ الأوطانِ

حـرّمَ نبيُّنَـا صَـلّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ الاحتكـارَ والغـشَّ، والاسـتغلالَ فـي التجـارةِ والمعـاملاتِ الاقتصـادية التـي فيهـا أكـلٌ لأمـوالِ النـاسِ بالباطـلِ فعَـنْ عُمَـرَ بْـنِ الْخَطَّـابِ، قَـالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللَّهِ يَقُـولُ: **"مَـنِ احْتَكَـرَ عَلَـى الْمُسْـلِمِينَ طَعَـامَهُمْ، ضَـرَبَهُ اللَّـهُ بِالْجُـذَامِ وَالْإِفْـلَاسِ"** (ابـن ماجـه)، وفـرضَ التكافـلَ المجتمعـيَّ، وتقـديمَ يـدَ العـونِ والمسـاعدةِ للجميـعِ، وهـذا يسـتلزمُ التكـاتفَ والتعـاونَ مـن كافـةِ أطيـافِ المجتمـعِ، وأنْ نكـونَ علـى قلـبِ رجـلٍ واحـدٍ قـال تعـالى: ﴿وَتَعـاوَنُوا عَلَـى الْبِـرِّ وَالتَّقْـوى وَلا تَعـاوَنُوا عَلَـى الْإِثْـمِ وَالْعُـدْوانِ﴾، وهـذا مـا نستشـفُّهُ ونسـتلهمُهُ مِـن «وثيقـةِ المدينـةِ» حيـثُ جمـع صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ كـلَّ مَـن يسـكنُ المدينـةَ، وعقـدَ معهـم معاهـدةً مـن أجـلِ الحفـاظِ علـى المدينـةِ مـن أيِّ عـدوٍّ داخلـيٍّ أو سـطوٍ خـارجيٍّ، وهـذه الوثيقـةُ تُعـدُّ أُنموذَجًـا فريـدًا فـي فقـهِ التعـايشِ السـلميِّ بـين البشـرِ جميعًـا علـى اخـتلافِ أديـانِهِم وأعـراقِهِم، وأعظـمَ مثـالٍ للمسـاواةِ وتحقيـقِ مبـدأِ الأخـوةِ الإنسـانيةِ، لـذا حققـتْ نجاحًـا بـاهرًا علـى أرضِ الواقـعِ، وهـذا خـلافُ مـا كانـتْ تعهـدُهُ جزيـرةُ العـربِ آنـذاك، فحيـاتُهُم قائمـةٌ علـى الفوضَـى واللامبـالاةِ فـي جـلِّ أمـورِ الحيـاةِ، وهـذا يُحتمُ علينَـا الالتـزامَ بكـلِّ حقـوقِ الـوطنِ والوفـاءَ بعهـودِهِ وقوانينِـهِ قـالَ تعـالى: ﴿يـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا أَوْفُـوا بِـالْعُقُودِ﴾ حتَّـى وإنْ كان الشخصُ لا يعيشُ في مرابعِهِ كما قالَ أميرُ الشعراءِ أحمد شوقي:

وطنِـى لو شُغِلتُ بالخُلدِ عنه ... نازعتنِـى إليه فى الخُلدِ نَفسي

***غـرسُ حـبِّ الـوطنِ في نفـوسِ الأطفـالِ**: يجـبُ علينَـا أنْ نُعـززَ قـيمَ الـولاءِ والانتمـاءِ للـوطنِ، وتعميـقَ الشـعورِ بالمسـئوليةِ تجـاهَ بلـدِنَا الحبيـب، ويبـدأُ ذلـك أولًا مـن الأسـرةِ ثـم المدرسـةِ، ولوسـائلِ الإعـلامِ المرئيـةِ والمسـموعةِ والمقـروءةِ دورٌ كبيـرٌ فـي تحقيـقِ ذلِـك، وكـذا مؤسسـاتُ المجتمـعِ المـدنِي، وهكـذا لا بـدَّ مِـن اصـطفافِ الجميـعِ فـي سـبيلِ الحفـاظِ علـى مقـدراتِ وطنِنَـا مصـداقًا لقولِـهِ تعـالى: ﴿فَلَـوْلا كـانَ مِـنَ الْقُـرُونِ مِـنْ قَـبْلِكُمْ أُولُـوا بَقِيَّـةٍ يَنْهَـوْنَ عَـنِ الْفَسـادِ فِـي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِـيلاً مِمَّـنْ أَنْجَيْنَـا مِـنْهُمْ﴾، فالطفـلُ عنـدمَا ينشـأُ ويُربَّـى علـى حـبِّ وطنِـهِ، وغـرسِ ثقافـةِ البنـاءِ والتعميـرِ، والبعـدِ عـن الكراهيـةِ والحقـدِ والتـدميرِ، لا شـكَّ أنَّ كـلَّ دعـوى تواجهـهُ بعـدَ ذلـك – فـي سـبيلِ زعزعـةِ هـذه القـيمِ المجتمعيـةِ - سـيكونُ قـادرًا علـى ردِّهَا ودحرِهَا بأيسرِ برهانٍ، وصدقَ أبُو العلاءِ المعرِي حيثُ قالَ:

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منَّا ... علَى ما كانَ عليهِ أبُوهُ

وما دانَ الفتَي بِحِجًى ولكِنْ ... يُعلمُهُ التدينَ أقربُوهُ

وأخيراً: نقولُ لهؤلاءِ الذين يدَّعونَ حبَّ الوطنِ، ويتغنونَ بالوطنيةِ، ولا نجدُ في أقوالِهم وأعمالِهم سوى الخيانةِ الرخيصةِ، والعمالةِ المقيتةِ البغيضةِ لأعدائِهِ، وتأجيجِ الفتنِ بين أبنائِهِ، والتشكيكِ فيما تُقيمُهُ بلدُنَا وتشهدُهُ مِن تنميةٍ وازدهارٍ لا مثيلَ لهُ على الإطلاقِ، أينَ الوفاءُ للأرضِ التي عشتُمْ عليها، وأكلتُمْ من خيراتِهَا، وترعرعتُمْ في ترباهَا، واستظلتُمْ تحتَ سماهَا، وأينَ ردُّ الجميلِ، ومجازاةُ حُسنِ الصنيعِ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ﴾، فمهمَا حاولَ هؤلاءِ وغيرُهُم ستظلُّ بلدُنَا محفوظةً بعنايةِ الإلهِ، فمصرُنَا ذُكِرَتْ في كتابِ ربِّنَا عشراتِ المراتِ تصريحًا وتلميحًا وتعريضًا، واقترنَ اسمُهَا بالأمانِ ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، وشَهِدَ بعلُوِ قدرِهَا نبيُّ السلمِ والسلامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثُ قالَ: «إذَا فتحَ اللهُ عليكُم مصرَ بعدِي، فاتخِذُوا فيها جندًا كثيفًا؛ فذلك الجندُ خيرُ أجنادِ الأرضِ، فقال له أبو بكرٍ: ولم ذلك يا رسولَ اللهِ ؟ قال: إنَّهُم في رباطٍ إلى يومِ القيامةِ» . (كنز العمال)، وقال الحافظُ السيوطيُّ: «في بعضِ الكتبِ الإلهيةِ مصرُ خزائنُ الأرضِ كلِّهَا، فمَن أرادَهَا بسوءٍ قصمَهُ اللهُ »، ويصدقُ ذلك قولُهُ تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلامُ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فتنبَّهْ وأعلمْ.

نسألُ اللهَ أنْ يجعلَ بلدَنَا مِصْرَ سخاءً رخاءً، أمنًا أمانًا، سلمًا سلامًا وسائرَ بلادِ العالمين، وأنْ يوفقَ ولاةَ أُمورِنَا لما فيه نفعُ البلادِ والعبادِ .

كتبه: د / محروس رمضان حفظي عبد العال
عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر

جريدة صوت الدعاة الإخبارية
رئيس التحرير د/ أحمد رمضان
مدير الجريدة أ/ محمد القطاوى
www.doaah.com
www.youtube.com/doaahNews1
صوت الدعاة